الحياة الطيّبة
السنة ١٦
العدد ٢٧
شتاء - ربيع ٢٠١٣ م
ملف العدد

موقع التوحيد في الرؤية الإسلامية لعلم السياسة - قراءة في الفكر السياسي عند الإمام الخميني قدس سره -

الشيخ مصطفى جعفري[1]

مدخل:

دخلت الثورة والحكومة الإسلامية في إيران عقدها الرابع، وما زالت الدراسات والتحليلات المتفاوتة مستمرّة في تحليل مباني الثورة الدينية وأهدافها، والرؤية السياسية التنظيرية التي طرحها الإمام الخميني قدس سره، والأيديولوجية التي انطلقت منها الثورة وقامت الدولة الإسلامية في إيران على أساسها.

فما هي الأهداف التي جرى التركيز عليها في الرؤية السياسية الدينية للإمام الخميني قدس سره؟ وما هو موقف الإمام قدس سره من موضوع «**التوقّع من الدين**» الذي على أساسه انتفض وقام وشكّل الحكومة؟ وأيّ من الأمور التالية كان مقصود الإمام قدس سره: مكافحة الظلم وطلب العزّة، أم أهداف الديمقراطية والحرّيّة، أم التوسعة الاقتصادية وتحسين الوضع المعيشي للمجتمع؟ وهل إقامة الحكومة الدينية تستدعي لزاماً لحاظ الأهداف الدنيوية فقط، فلا يمكن إقامتها من دون نظرة دنيوية للدين؟ ألا يمكن أن يكون تركيز الحكومة الدينية على كلٍّ من الأهداف الدنيوية والأخروية

(١) أستاذ في الحوزة العلمية، ومدير عام ممثلية جامعة المصطفى صلى الله عليه وآله العالمية في لبنان.

وتطلّعاتها كامناً في التغيير داخل المجتمع وخارجه؟ وكيف كانت وجهة نظر الإمام قدس سره من الثورة والنظام السياسي؟ وهل كان يرى أنّ الثورة والحكومة الإسلامية للدنيا فقط، وأنّها غير متاحة للثورة الأخروية التي هي داخل الإنسان؟ وهل إنّ هدف إقامة الحكومة الإسلامية الإيرانية هو تغيير أوضاع المسلمين، لأنّ ما نتوقّعه من الدين أن يكون المسلمون أعزّاء في الدنيا لا يحتاجون إلى الآخرين، أم إنّ للإمام قدس سره أهدافاً أسمى، وأنّ موقفه من الدين موقف من يعتقد أنّ للثورة الدينية أهدافاً دنيوية وأخروية؟ وهل إنّ مقولة «**العزّة للمسلمين**» هي أحد أهداف الثورة والنظام الديني، إلى جانب أهداف أخرى، كالحرية، والاستقلال، ومواجهة الظلم، والتنمية العامّة لكلّ الناس (أعمّ من المسلمين) أيضاً؟ وما هو الهدف الأمثل والأبرز الذي يسعى الإمام قدس سره إلى تحقيقه؟ وإلى أيّ قاعدة استند موقفه الأساس والأولي للدين، والرؤية السياسية التي عمل على التنظير لها وحاول تطبيقها في المجتمع؟

وتُعدّ معالجة هذه الأسئلة من المباحث المهمّة جدّاً التي ينبغي تقديمها بدقّة عالية وتحليل عميق، بالاستناد إلى عشرات السنوات من العمل النضالي للإمام الخميني قدس سره، على مستوى التنظير والعمل، بهدف إقامة الحكومة الإسلامية، واستخراج رؤية سياسية متكاملة تشكّل أنموذجاً يحتذى به.

وقد عمدنا إلى معالجة أجوبة هذه الأسئلة المطروحة، انطلاقاً من البعد العقدي، وتحديداً من أصل التوحيد في الدين الإسلامي وموقعه في الفكر السياسي للإمام الخميني قدس سره وتجربته في قيادة الثورة والدولة، مروراً بدراسة مقاطع تاريخية هامّة في حياته السياسية وتحليلها.

فعندما كان الإمام قدس سره في قرية «**نوفل لوشاتو**» وهي قرية قريبة من باريس، حيث كان محلّ إقامته بعد خروجه من العراق، وفي زمن وصل نضال الأمّة الإيرانية إلى أوجّه، حتى أضحى على مقربة من النصر،

وفي تاريخ ١٣٥٧/٨/١٨ هـ.ش يسأل مراسل صحيفة التايمز اللندنية عن عقائد الإمام قدس سره وأفكاره، وفي الجواب يسمع التالي: «**إنّ جذر العقائد كلّها وأصلها هو ما جاء في القرآن الكريم وأوضحه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأئمّة الحقّ عليهم السلام بعده. وأساس هذه الأصول أصل التوحيد، فبناءً على هذا الأصل، نعتقد أنّ الخالق ومبدع العالم وجميع الوجود والإنسان هو الذات المقدّسة لله تعالى الذي يعلم بكلّ الحقائق والقادر على كلّ شيء ومالك كلّ شيء**»[1].

ومن خلال هذا الحديث يتعرّض الإمام قدس سره إلى استخراج لوازم الإيمان التوحيدي ونتائجه، ويشير إلى التعاليم الكثيرة التي يمكن تحصيلها على ضوء التوحيد.

إنّ ما يعدّه الإمام قدس سره من إنجازات التوحيد يمكن توضيحه في أصول تسعة، هي:

١- أن يكون تسليم الإنسان للذات المقدّسة فقط، وأن لا يطيع أيّ إنسان، إلا إذا كانت إطاعته في طول إطاعة الله تعالى.
٢- لا يحقّ لأيّ إنسان أن يجبر إنساناً آخر على التسليم له.
٣- لا يحقّ لأيّ فرد أن يحرم إنساناً أو مجتمعاً وأمّةً من الحرّيّة، وأن يضع قانوناً لهم، وأن يرسم سلوكهم وعلاقاتهم، بناءً على طلباته وميوله، أو على إدراكه ومعرفته الناقصة جدّاً.
٤- إنّ التشريع بيد الله تعالى، كما أنّ الله تعالى عيّن قوانين الوجود والخلقة، وجعل سعادة الإنسان والمجتمعات وكمالهما وفق امتثالهما للقوانين الإلهية التي أبلغ بها البشر عن طريق الأنبياء عليهم السلام.
٥- إنّ سبب انحطاط البشر وسقوطهم يكمن في تسليمهم لغير الله تعالى.
٦- على الإنسان أن ينتفض ويقوم على من يأسره، وأن يحرّر نفسه

(١) انظر: الخميني، روح الله: صحيفة النور، طهران، نشر وزارة الإرشاد الإسلامي، ١٣٦١هـ.ش، ج٤، ص١٦٦-١٦٧.

ومجتمعه من أسر تلك القيود والسلاسل، ليصبح الجميع مسلمين لله وعبيداً له.

٧- لتحقيق التحرّر، لا بدّ من البدء من ثوابتنا الاجتماعية القائمة على مبدأ المواجهة مع قوى الاستبداد والاستعمار.

٨- كلّ البشر سواسية أمام الله، فهو خالق الجميع، والكلّ مخلوقاته وعبيده. والأصل تساوي البشر، والامتياز الوحيد فيما بينهم يكمن في معيار التقوى وتجنّب الانحراف والخطأ.

٩- يجب مواجهة كلّ ما يفسد المساواة في المجتمع، وكذلك من يحكّم مصالحه الفارغة فيه.

إنّ الأصول التسعة أعلاه، هي تعاليم الإمام الراحل قدس سره في مجال الشؤون السياسية والاجتماعية والعلاقات الإنسانية، والتي يمكن تحقيقها وفق أصل التوحيد.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الأصول العقدية للنظام الديني في الفكر السياسي للإمام قدس سره بمحورية التوحيد تشكّل مقولات مهمّة جدّاً وأساسية، كالحرية، والعدالة، ورفض الظلم، ومواجهة الاستبداد والاستعمار والتمييز العنصري، حيث إنّ تلك المقولات حاجات أساسية للإنسانية في الأمس واليوم، تضمن لهم فلاحهم وسعادتهم الأبدية، وتمثّل لهم ضرورات عملية يلزم توافرها في نظامهم السياسي المجتمعي.

وقد تجلّى ذلك في المقابلة الموجزة للإمام قدس سره مع صحيفة التايمز اللندنية، التي حملت أفكاره قدس سره في مجال السياسة والنظام الاجتماعي، حيث يشكّل التوحيد أساس هذه الأفكار ومحورها.

وبرأي الإمام قدس سره، إنّ التأمّل في التوحيد يشتمل على إشارة إلى مسألة مهمّة، هي: وإن كان التوحيد عنواناً أصلياً من الأصول الاعتقادية إلى جانب الأصول الأخرى، كالعدل، والنبوة، والإمامة، والمعاد، إلا أنّ حقيقة الأمر تكمن في أنّ للتوحيد حقيقة أعلى وأسمى، تتجلّى في رجوع الأصول

كلّها إلى أصل التوحيد، فمعرفة النبي ﷺ، والإمام عليه السلام والمعاد بالنسبة للموحِّد هي فرع معرفة المبدأ الكامن في أنّ الله سبحانه وتعالى كمال مطلق منزّه ومبرّأ من كلّ نقص، وبذلك نصل إلى أصل العدل ونبعد ساحة الربوبية عن الظلم. وعليه فإنّ الاعتقاد بالعدل فرع معرفة التوحيد.

ومن جهة أخرى، إنّ هداية الإنسان إلى الخير والسعادة، وتبصرته بالمعرفة الصحيحة والسلوك الأفضل تعدّ كلّها من أبعاد الربوبية ولوازم الحكمة الإلهية، التي اقتضت بعثة الأنبياء عليهم السلام وضرورة النبوّة والإمامة. وبذلك نكتشف نوع الرابطة القريبة والوثيقة للحكمة الإلهية مع هذين الأصلين.

وبالتفكّر العميق في صفتي العدل والحكمة نصل إلى الإيمان بالمعاد، لأنّنا بالتدقيق في مسألة البعثة وإنزال الكتاب السماوي للهداية، نجد أنّ العدالة والحكمة توجبان أن لا يكون الكافر والمؤمن، والفاسق والصالح سواءً، فلا بدّ من وجود مكان آخر لإدامة الحياة الدنيوية للبشر ومحاسبة الإنسان على سلوكه.

وهنا، يكمن سرّ كلام الإمام قدس سره من خلال تركيزه على أصل التوحيد بصفته الأصل الأهمّ والأبرز في البناء العقدي الإسلامي: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾[1]. ففي هذا المثل القرآني شُبِّه نظام الفكر الإسلامي بالشجرة التي لها أصل هو الكلمة الطيبة «**لا إله إلا الله**»، والتي تعدّ أصلاً للفروع الأخرى، ومع نمو هذا الأصل ورشده - كما في الشجرة - فإنّ أغصانه وأوراقه تزهر وتنتج ثماراً قيّمة. وقد أشار العلامة الطباطبائي قدس سره إلى هذه الآثار بقوله: عندما يعمّ وينتشر التوحيد يصبح هو كلّ الإسلام[2]... فمعرفة الله هي المنتجة لسائر العقائد والنظم المعرفية الدينية، وهي مثل الجذع في

(١) إبراهيم: ٢٤-٢٥.

(٢) الطباطبائي، محمد حسين: الميزان، لاط، قم المقدّسة، منشورات جماعة المدرّسين، لات، ج١٢، ص٥٢.

الأرض الخصبة، يتفاعل ويورق ويثمر. فالتوحيد محور النظام المعرفي، ومحور نظام قيم الفكر الإسلامي، فكلّما تكامل وتجذّر في روح الإنسان، فإنّه يتجلّى ويبرز في إيمانه وسلوكه.

والإقرار بكلمة الإخلاص والإيمان بالتوحيد ليس بصفتها عقيدة وفكرة فارغة لا تأثير لها في سلوك الإنسان وعمله، أو لا ارتباط لها في أفكاره ونظرياته، أو أنّها منفصلة عن النظم الاجتماعية والقيم الأخلاقية. فمن جهة، إنّ معرفة التوحيد، فضلاً عن كونها مؤثّرة في معرفة الوجود، فإنّها مؤثّرة -أيضاً- في النظام القيمي للإنسان الموحِّد. فالمؤمن الموحّد بهدف القرب إلى الكمال المطلق والسلوك إلى الله يقوم بتنظيم سلوكه ويحكم عمله. وهدفه النهائي هو حضرة الحقّ تعالى. ولكي يشرق نور التوحيد على روحه، يقوم بتجلية مرآة قلبه، وتصفية روحه وباطنه. ومن جهة أخرى، إنّ معرفة التوحيد تعدّ منظِّمة للعلاقات الاجتماعية، والحقوقية، والسياسية. وبالتالي، فإنّ مقولة السياسة التي تؤثّر فيها فكرة التوحيد تنتظم ضمن النظام التوحيدي، لأنّ عقيدة التوحيد تدخل وتنشط في المعرفة، والأخلاق والسياسة على حدّ سواء.

وبناءً على ما تقدّم، نجد أنّ التوحيد يشكّل المبنى الأصلي للتوجّه الفكري للإمام الخميني قدس سره، بحيث يُعدّ جوهر ثورته الدينية وأصلها، فمع التوحيد لا يصلح داخل الإنسان وحسب، بل إنّ المجتمع يصل من خلاله إلى الصلاح والفلاح.

وبالإضافة إلى مقولة طلب العزّة، فإنّ هناك أموراً مهمّة أخرى تتيسّر ببركة التوحيد، من قبيل: إيجاد عالمٍ حرٍ عامرٍ خالٍ من كلّ ألوان الفساد والظلم والتمييز العنصري.

إنّ ما تقدّم، هو جواب مختصر وموجز للأسئلة التي ذُكِرَت في مستهلّ المقالة. والآن بمساعدة ما ذكر في الجواب الإجمالي نقوم بتفصيل أكثر له، لنبيّن مكانة التوحيد وطبقاته المختلفة في النظام الفكري الإسلامي،

ولا سيما السياسي، وبعده نلقي الضوء على عقيدة الإمام الخميني قدس سره في باب التوحيد، حتى نصل إلى نظريته السياسية - الدينية وعقيدته بالنسبة إلى الثورة الدينية وتوقّعه من الدين.

أولاً: المعرفة التوحيدية في النظام الفكري الإسلامي:

إنّ كلمة «**توحيد**» مصدر على وزن تفعيل، ويستعمل وزن التفعيل لإعلام القبول والإقرار. والغرض منه ليس الإيجاد والإنشاء، كما هو في سائر الأفعال المتعدّية، بل غرض استعماله هو غرض استعمال التعظيم والتكبير نفسه، فكما أنّ التعظيم بمعنى اعتبار العظمة للفرد لا بمفهوم إيجاد العظمة له، فإنّ التوحيد أيضاً ليس بمعنى جعل الشيء واحداً، بل بمفهوم الاعتقاد بأنّه واحد أحد. وفي عرف المسلمين المقصود من «**التوحيد**» عندما يكون بدون قيد ومذكوراً بصورة مطلقة، هو الإيمان بالله الأحد مبدأ الخلق.

وقد اعتقد الفلاسفة والمتكلّمون بوجود مراتب للتوحيد، وهذه المراتب عبارة عن: التوحيد الذاتي، والتوحيد الصفاتي، والتوحيد الأفعالي.

١) **التوحيد الذاتي**: والمقصود به تنزيه الساحة الإلهية من الشريك ومن التركيب، والإيمان بأنّ حضرة الحقّ تعالى لا جزء له ولا نظير ولا مثيل. فهو واحد الأحدية والواحدية: «**هو واحد، أحدي الذات، بائن من خلقه...**»[1].

٢) **التوحيد الصفاتي**: والمقصود به الاعتقاد بوجود صفات للذات المقدّسة، مثل: الحياة، والعلم، والقدرة، وأنّ هذه الصفات هي عين ذاته تعالى، وليست زائدة أو عارضة على ذاته تعالى، وأنّه منزّه عن النقص، بأن تكون الصفات خارجة عن الذات وعارضة عليها، وأن لا تكون الكمالات والأسماء الحسنى

(١) ابن بابويه، محمد بن علي: التوحيد، تصحيح وتعليق السيد هاشم الحسيني الطهراني، لاط، قم المقدّسة، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدّسة، لات، باب٩ «باب القدرة»، ح١٣، ص١٣١.

داخل ذاته: «**وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه**»[١].

٣) **التوحيد الأفعالي**: والمقصود به هو بيان أنّ عالم الخلق منظَّم ومبني على الأسباب والمسبّبات، وأنّها ناشئة من إرادة الخالق ومعتمدة على مشيئته. فالظواهر الوجودية الكلّية والجزئية في ذاتها محتاجة لخالقها، متوقّفة عليه، وهو تعالى قائم بذاته: ﴿**اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾[٢]. وهذه الظواهر بالتالي غير مستقلّة في مقام التأثير، وكلّ أثر وعمل يحدث من الوجود الممكن بحول من الله وقوّته، فلا مؤثّر في الوجود إلا الله. فالتوحيد الأفعالي هو الإيمان والإقرار بارتباط الظواهر الوجودية بالله تعالى وفقرها في ذاتها واحتياجها لله تعالى، من دون أن يكون هذا الإيمان في تعارض مع النظام العلّي طارداً له. فالتوحيد الأفعالي يتشعّب إلى فروع متعدّدة، كالتوحيد في الخالقية، والتوحيد في الربوبية، نتاولها باختصار:

أ- **التوحيد في الخالقية**: وهو اعتراف الموحّد وإيمانه بأنّ موجودات عالم الوجود كلّها فقيرة ومحتاجة، ووجودها رهن الفيض والتجلّي الإلهي، فالكلّ مخلوقاته، ولا خالق سواه: ﴿**قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**﴾[٣].

ب- **التوحيد في الربوبية**: لفظة الربّ في اللغة تعني المتصرّف والمدبّر والمتحمّل أمر تربية الشيء. وحقيقة التدبير جعل شيء عقب شيء آخر، وتنظيم الأشياء وتنسيقها، بحيث يتحقّق بذلك مطلوب كلّ منهما، وتحصل له الغاية المطلوبة له.

وفي مباحث التوحيد، إنّ الغرض من التوحيد الربوبي هو الإيمان

(١) الرضي، الشريف محمد بن الحسين بن موسى: نهج البلاغة (الجامع لخطب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وحكمه ورسائله)، شرح الشيخ محمد عبده، ط١، قم المقدّسة، دار الذخائر، مطبعة النهضة، ١٤١٢هـ.ق/ ١٣٧٠هـ.ش، الخطبة١، ص١٥.

(٢) البقرة: ٢٥٥.

(٣) الرعد: ١٦.

بحقيقة أنّ تدبير عالم الوجود - ومنه الإنسان - بيد إله العالم وحده، والخلق كلّهم تحت ربوبيّته وتدبيره. فالإنسان في خلقه وتكوينه لم يفوِّض الله تعالى إليه تدبير نفسه، بل دوماً يعيش بالتدبير الإلهي[١]: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[٢].

ويحلّل التوحيد في الربوبية باعتقاد المسلمين إلى قسمين، هما:

الأوّل: الربوبية التكوينية:

والمقصود بالتوحيد في الربوبية التكوينية هو الإيمان بحقيقة أنّ تكوين العالم وتدبيره وإدارته بيد الله تعالى، بحيث لا يخرج عن ربوبيّته أي شيء، من حركة النجوم والكواكب، إلى حركة الرياح ونمو النباتات... لأنّها كلّها خاضعة لربّ العالمين وتحت تدبيره وإشرافه.

والتوحيد في الربوبية التكوينية، من أدقّ المراحل وأصعبها في العقيدة التوحيدية، ويعدّ من المراحل المتكاملة للتوحيد. وإنّ التدبّر والتفكّر في آيات القرآن يكشف عن حقيقة مفادها: أنّ المشكلة الاعتقادية للكثير من الكفّار والمشركين في أمم الأنبياء عليهم السلام والرسل عليهم السلام، كإبراهيم عليه السلام، والرسول الخاتم صلى الله عليه وآله كانت تكمن في هذه المرحلة من التوحيد. مع أنّهم كانوا يؤمنون بتوحيد الذات وتوحيد الخالقية: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[٣].

وعند سؤالهم عمَّن خلق السماوات والأرض، فإنّ جوابهم اعتراف بالتوحيد في الخالقية. فالذي يميّز المشركين عن صفّ الموحدّين، يكمن في مرحلة التوحيد الربوبي، وهذا ما نراه من اعتماد نبي الله إبراهيم عليه السلام على الربوبية التكوينية للحقّ تعالى في احتجاجه على مشركي عصره: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾[٤].

(١) انظر: السبحاني، جعفر: محاضرات في الإلهيات، ط١، بيروت، الدار الإسلامية، ١٤٠٩هـ.ق/ ١٩٨٩م، ص٤٠٣-٤١٥، اليزدي، محمد تقي مصباح: التوحيد في نظام العقائد وقيم الإسلام، ط٢، ١٣٧٠هـ.ش، ص٢١-٢٣.

(٢) طه: ٥٠.

(٣) لقمان: ٢٥.

(٤) الأنعام: ٧٦.

الثاني: الربوبية التشريعية:

إنّ الإيمان بالتوحيد في الربوبية التشريعية، مرحلة متعالية للتوحيد، فلا يصل التوحيد إلى نصابه اللازم من دونها. وهذا القسم من الربوبية مرتبط بالأفعال الاختيارية والإرادة الحرّة للإنسان. وتمايز الإنسان عن باقي الموجودات يكمن في الإرادة الحرّة التي أعطاها الله للبشر. فالإنسان ينتخب ويسعى لرشده وكماله بالإرادة والاختيار الحرّ الذي يمتلكه. ولا يمكن أن يتحقّق هذا الكمال تحت الضغط والاختيار الإجباري، لأنّه بناءً على هذا الفرض، فإنّ الربيوبيّة الإلهيّة، بالنسبة إلى الأفعال والسلوك الإرادي والحر للإنسان - الذي تمتّع بالنعمة الإلهية بالإرادة الحرّة، وحقّ الاختيار في مجال الفكر والإيمان الداخلي، وفي مجال السلوك، والعمل الخارجي، ووهبَ الأدوات والأسباب اللازمة لإعمال هذه الإرادة الحرّة - تقتضي أن لا يترك الإنسان وشأنه، بل إنّ الله تعالى قد أرشده إلى طريق السعادة المستقيم، وأظهر له سبيل السعادة والشقاء، والحسن والقبح ، وهداه إلى برنامج الحياة الفردي والاجتماعي للوصول إلى الكمال والرشد، وليهتدي إلى الصراط المستقيم بإرادته ويؤمن به: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[1].

وعلى أساس التوحيد في الربوبية التشريعية، يجب على الإنسان فقط أن يطيع الله ومن أمره تعالى بإطاعته، وأن يلتزم بقوانينه وأوامره حصراً، ويؤمن بأنّ حقّ وضع الأوامر والتشريعات له تعالى فقط.

فالإيمان بالربوبية التشريعية الإلهية من المراحل الصعبة للفكر التوحيدي، حيث يواجه الإنسان امتحاناً وبلاء شديداً في سبيل قبولها، لأنّه يجب عليه، بإرادته الحرّة، أن يؤمن بالأوامر الإلهية ويتّبعها، وأن لا ينصاع لأمانيه وميوله النفسية، ويقطع الصراط المستقيم الإلهي، فهذا أمر عظيم ومهمّ في مسير الرشد والسعادة الإنسانية. والشاهد على هذه

(١) البقرة: ٢٥٦.

الحقيقة، التأمّل في انحراف إبليس، على طبق تعاليم القرآن، فالقرآن الكريم يعدّ إبليس من الكفّار وفي عداد غير الموحِّدين: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[١]. فما هو منشأ كفر إبليس وبداية انحرافه عن التوحيد؟ فعلى أساس المدارك والمعارف الدينية، كان لإبليس إيمان بالذات الإلهية، ولم يكن ينكر ذلك، وعبد الله تعالى ستّة آلاف عام. وعلى طبق الروايات لا يعرف هل كانت من السنوات الدنيوية أم الأخروية، حيث كلّ يوم منها كألف سنة من سني الدنيا[٢]. فإبليس يؤمن بالمبدأ والمعاد، ولذا طلب من الله تعالى الإمهال ليوم القيامة: ﴿قَالَ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[٣]. ولم يكن نقص إبليس في أيّ من التوحيد الذاتي والصفاتي، أو التوحيد في الخالقية والربوبية التكوينية. وما يعدّ نقصاً لإبليس حتى أخرجه من زمرة الموحِّدين هو عدم إيمانه بالربوبيّة التشريعية. فهو لم يكن مطيعاً للأمر الإلهي، لأنّ الحكم والقانون الإلهي لم يكن موافقاً لميوله النفسية ومشتهياته الباطنية، وبذلك وقع في الكفر. وهذه حقيقة قرآنية مبيّنة للطريق الحسّاس وذي التعرّجات للتوحيد الربوبي التشريعي، الذي يعدّ حدّ النصاب للتوحيد.

وعليه، فإنّ الإنسان الموحِّد ينبغي له أن يؤمن ويعتقد أنّ الله تعالى وحده قابل للإطاعة، وأنّ مشروعية أيّ قدرة سياسية وأيّ قانون تُستمدّ من المبدأ الإلهي، وإلا فإنّ الجهاز السياسي والحقوقي يقع في عرض الجهاز التشريعي الإلهي، ويقع في تعارض واضح مع نظام التوحيد.

وهنا، يتّضح الارتباط بين مقولة التوحيد والسياسة، وإن كان بالظاهر لا ارتباط بينهما، ويتّضح أيضاً دور التوحيد في الفكر السياسي للإنسان الموحِّد الذي قَبِل وآمن بمراحل التوحيد كلّها، من التوحيد الصفاتي حتى

(١) البقرة: ٣٤.

(٢) انظر: الرضي، الشريف محمد بن الحسين بن موسى: نهج البلاغة (الجامع لخطب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وحكمه ورسائله)، شرح ابن أبي الحديد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، لام، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٧٨هـ.ق/ ١٩٥٩م، الخطبة ٢٣٨، ص١٣١.

(٣) الأعراف: ١٤.

التوحيد الربوبي التشريعي.

والآن بالتأمّل فيما تقدّم، والذي كان ترسيماً إجمالياً لعقيدة التوحيد في نظام العقيدة والفكر الإسلامي، ولمراحل التوحيد ومراتبه، من مرحلة الإيمان القلبي إلى ظهورها وبروزها في عرصة الاجتماع والسياسة، يمكن أن نخوض في تحليل النظرية السياسية - الدينية للإمام الخميني قدس سره. وبالاستناد إلى كلمة التوحيد ودورها في النظام الفكري للإمام قدس سره، يمكن تحليل نظريّته للثورة الدينية والثورة الإسلامية، والقيام بقراءة متجدّدة للتوحيد في مباني فكره السياسي.

ثانياً: قراءة جديدة للتوحيد في فكر الإمام الخميني قدس سره:

كما تقدّم، فإنّ الإمام قدس سره في معرض إجابته لمراسل التايمز اللندنية، يُعرِّف أساس فكره ومبانيه الاعتقادية، بالتالي: «**إنّ جذر العقائد كلّها وأصلها، بحيث يعدّ الأهمّ والأكثر قيمة في اعتقاداتنا، هو أصل التوحيد**»[1].

إنّ الذي يخوض ويمعن النظر في سير أفكار الإمام قدس سره وعقائده على طول تاريخه الشامخ والمتعالي، يصل بسهولة إلى هذه الحقيقة، وهي: أنّ معظم آثاره المكتوبة قبل عقده الرابع، تتمحور حول التوحيد وموضوعات عرفانية مرتبطة بالتوحيد. وإنّ آثاراً مهمّة، مثل: «**شرح دعاء السحر**»، و«**مصباح الهداية إلى الخلافة والولاية**»، و«**التعليقة على الفوائد الرضوية**»، و«**تعليقة على شرح فصوص الحكم ومصابيح الأنس**»، و«**شرح الأربعون حديثاً**»، خطّت في مدينة قم المقدّسة، كونه مدرّساً وكاتباً مرموقاً، ولم يكن آنذاك قد تصدّى للمرجعية أو تعاطى بالأمر السياسي بشكل علني وفعّال. وهذه الحقيقة حكاية عن قلب مشغول وتوجّه باطني للإمام قدس سره إلى موضوع التوحيد، قبل أيّ موضوع ومسألة

(١) انظر: الخميني، صحيفة النور، م.س، ج٤، ص١٦٦-١٦٧.

أخرى. وهذا ما يلاحظ ويفهم من سيرته في المجالات المختلفة الدينية والسياسية، وقد رافقه هذا التوجُّه حتى آخر أيام حياته. ومن خلال هذا المنظور والرؤية يتناول موضوع العالم والإنسان والدين والسياسة، وأيّ موضوع مفروض آخر، وبعض تجلّيات هذا التوجّه ذُكِرَ في آخر المقالة.

كان الإمام قدس سره في فكره التوحيدي متأثّراً، وقبل أيّ شيء، بالقرآن وأهل البيت عليهم السلام، وبعدهما بالعرفاء المسلمين. فقد كان يبيّن موضوع التوحيد ويحلّله على أساس ما تعلمه من القرآن وكلام المعصومين عليهم السلام، وإن كان في بعض الموارد يستفيد، في إثبات المبدأ، من برهان النظم، أو برهان الإمكان والوجوب، وأنّ الممكنات بحاجة إلى وجود واجب[1]، ولكنّه اقتداء بأستاذه الحكيم «**آية الله شاه آبادي** قدس سره» في مباحثه عن المبدأ ومعرفة التوحيد، حيث إنّ له توجّهاً واضحاً وجليّاً إلى الفطرة، وفق اعتقاد أنّ فطرة كلّ إنسان تتعلّق بالكمال المطلق، وتنفر من أيّ نقص وعيب، وهذا الكمال المطلق يوصله إلى المبدأ ويثبّت الاعتقاد بالتوحيد[2].

فمسألة العشق للكمال المطلق والنفور من النقص، هي من مقتضيات الفطرة الإنسانية السليمة، التي تقود الإنسان إلى الله تعالى. فالغرض من العشق الوصول إلى الكمال المطلق.

إنّ الإنسان يشاهد محبوبه بين الناس، ويتعلّق قلبه ببعض المصاديق التي يعتبرها كمالاً له، كالثروة، والقدرة، والعلم والمعرفة، وغيرها، حيث إنّ كلّ شخص يبحث عن محبوبه في واحد من هذه الأمور ويعتبره محبوبه الواقعي، والاختلاف والتفاوت بين أفراد الإنسان هو في تشخيص مصداق المحبوب وتعيينه. والحال أنّهم عندما يرجعون إلى فطرتهم السليمة، فإنّهم جميعاً سوف يدركون هذه الحقيقة، وهي أنّهم لا يقتنعون بذاك

(١) انظر: الخميني، روح الله: الأربعون حديثاً، ط٢، مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني قدس سره، ١٣٧٢هـ.ش، ح١٢، ص١٩٥-١٩٨، المؤلّف نفسه: تفسير سورة الحمد، ط١، مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني قدس سره، ١٣٧٥هـ.ش، ص٩٨-١٠٢.

(٢) الخميني، الأربعون حديثاً، م.س، ح١٢، ص١٨١-١٨٥.

المحبوب، وإذا أدركوا مرتبة أعلى فإنّ قلبهم ينشدّ إليها مباشرة، فنور الفطرة تهدي الإنسان إلى الكمال الذي ليس فيه أيّ نقص وخلل. وهذه الفطرة مصدر لتمام حركات البشر ومساعيهم وتحمّلهم المصاعب المرهقة. وتفاوت أفراد الإنسان يكمن في تشخيص المحبوب الواقعي، فكلّ إنسان - في توهّمه - يبحث في شيء عن الكمال المطلوب. فالشخص طالب السلطان - مثلاً - لو تسلّط على الأرض كلّها، فإنّ قلبه يتوجّه إلى شيء أعلى، لأنّ القلب البشري متوجّه لكمال لا نقص فيه، وعلم لا جهل فيه، وقدرة لا عجز فيها، وحياة لا موت فيها، فالجميع عاشق للكمال المطلق، ولا تتوجّه الفطرة إلا لذات الكامل المطلق. إنّ هذا حكم الفطرة، وأحكام الفطرة أوضح من جميع البديهيات.

ويعرض الإمام قدس سره في تفسيره لسورة التوحيد، حيث يعرّف في المرحلة الأولى أنّ كلمة «**هو**» إشارة إلى هذه الهوية الإلهية المطلقة، معتقداً أنّ الهوية المطلقة تتوجّه إليها فطرة الإنسان، وأنّها مطلوبة ومعشوقة الجميع. ثمّ في المرحلة الثانية فإنّه يعتبر أنّ الهوية المطلقة برهان لستّ صفات من صفات الباري تعالى، حيث أشير إليها في تكملة سورة التوحيد. وهذه الصفات والخصائص عبارة عن:

١- «**الله**»: جامع كلّ الكمالات.

٢- «**أحد**»: البساطة وعدم التركيب.

٣- «**واحد**»: لا مثيل له ولا نظير (لازم الأحدية).

٤- «**صمد**»: مبرّأ ومنزّه عن أيّ نقص وعيب.

٥- «**لم يلد**».

٦- «**ولم يولد**»[1].

وعلى هذا الترتيب، من شعاع سورة التوحيد، وبالإلهام من الفطرة الباحثة عن الكمال، يثبت التوحيد في مراتب الذات، والصفات، والأفعال.

(١) الخميني، الأربعون حديثاً، م.س، ح١٢، ص١٨٥.

وبعد هذه المرحلة نصل إلى شرح توحيد الأفعال في فكر الإمام قدس سره، حيث يعرض الإمام قدس سره موقفه من مسألة دقيقة وغامضة هي مسألة «**توحيد الأفعال**»، بالاستلهام من الكتاب والسنّة، فهو يعتبر أنّ ربط الوجود بحضرة الحقّ هو ربط خاصّ يُعبَّر عنه بالتجلّي والظهور. وهو يتفاوت بشكل ماهوي وبارز عمّا يعرفه الإنسان عن أنواع الربط الأخرى.

ومن أهمّ نماذج الربط التي يعرفها الإنسان[1]، ربط وجود الولد بالوالد، وربط أشعة الشمس بقرصها، وربط الحواس وقوى النفس، كحسّ الرؤية والسمع مع النفس. ففي الأنموذج الأوّل نشاهد بشكل كامل الانفصال والبينونة، ولا نجد رابطة تكوينية قوية، وفي الأنموذج الثاني، وإن كانت الرابطة أعمق، ولكنّ التمايز مشهود، أمّا في المثال الثالث فالارتباط والاستمرارية قويّان وواضحان بشكل كامل، حيث إنّ الإنسان يدرك بالعلم الحضوري والشهودي هذه الحقيقة بأنّ النفس لها إحاطة قيومية من كلّ الجوانب بالنسبة لقواها وحواسها، وإنّ تلك القوى لها تعلّق كامل بالنفس. ومع ذلك يعتبر الإمام قدس سره أنّ ربط ظواهر العالم بالله سبحانه أدقّ من تلك السابقة، مع أنّه يعتقد بأنّ هذا الربط غير قابل للبيان والوصف، لأنّ الألفاظ لا يمكنها تحمّل معناه. فإذا أردنا أن نخبر عن هذا الربط ونحضره إلى قالب الألفاظ، فإنّ أفضل تعبير هو التجلّي والظهور، وهذا موجود في تعبيرات العرفاء. ويمكننا أن نشاهد أصل هذا التعبير في آيات القرآن وبعض الأدعية، ومن جملتها الآية الشريفة: ﴿**فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا**﴾[2]. وفي هذه الآية كلام عن التجلّي والظهور لله تعالى على نبي الله موسى عليه السلام، نظير ما نشاهده في دعاء السمات والمناجات الشعبانية. ففي دعاء السمات نقسم بالله: «**وَبِنُورِ وَجْهِكَ الَّذي تَجَلَّيْتَ بِهِ لِلْجَبَلِ فَجَعَلْتَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسى صَعِقاً**»[3]

(١) الخميني، تفسير سورة الحمد، م.س، ص١٧٥-١٨٨.
(٢) الأعراف: ١٤٣.
(٣) الطوسي، محمد بن الحسن: مصباح المتهجّد، ط١، بيروت، مؤسسة فقه الشيعة، ١٤١١هـ.ق/ ١٩٩١م، ص٤١٩.

وفيه إشارة إلى ما حصل مع النبي موسى عليه السلام، وقد نقله القرآن - كما تبيّن -. وفي المناجات الشعبانية نقرأ: «**إلهي وَاجْعَلْني مِمَّنْ نادَيْتَهُ فَاَجابَكَ، وَلاحَظْتَهُ فَصَعِقَ لِجَلالِكَ، فَناجَيْتَهُ سِرّاً**»[١].

وعليه، وإن كان الفلاسفة والفقهاء يتحدّثون عن العلّة والمعلول، والخالق والمخلوق، أو الأثر والمؤثّر، في بيان الرابطة بين عالم الخلق والله تعالى، ولكنّ تعبير الكتاب والسنّة هو التجلّي والظهور، لأنّ هذا التعبير يمكنه أن يعبر بنا بشكل أفضل إلى حقيقة المطلب. ومن هذه الجهة نجد أنّ القرآن الكريم يعرّف الله سبحانه بأنّه نور السماوات والأرض: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾[٢]. ولم يقل: «**بالله تتنوّر السماوات والأرض**»، لأنّ ذلك على قول الإمام قدس سره حاكٍ عن نوع من الفصل والتغاير. فتعبير نور السماوات والأرض يفهمنا أنّ السماوات والأرض ظهور نور الله وتجلٍّ له تعالى. وكلّ الموجودات، علاوة على أنّها نور، فهي نور الله، وبنفسها ليست شيئاً، وليس لها استقلال. والاستقلال معناه أن يخرج الموجود من الإمكان إلى رتبة الوجود الواجب. وفي حال أنّ شعاع الوجود الذي أوجد الموجودات بتجلّيه قد ذهب فإنّ تمام الموجودات ستخرج من عالم الوجود إلى حالتها الأولى، لأنّ دوام الوجود بهذا التجلّي، حيث وجد العالم كلّه بتجلّي الحقّ تعالى، وهذا التجلّي والنور أصل حقيقة الوجود[٣].

وبناءً على ما تقدّم، تتضح رؤية الإمام قدس سره إلى الوجود، وكيف يكون، فهو يعتبر العالم كلّه تجلّياً للحقّ وعين الربط والتعلّق بالله تعالى. وهذا النظر على أساس نظرية الإمكان الفقري التي برهن عليها بشكل واضح ومتين في الحكمة المتعالية الصدرائية، وشرح كيفية الربط بين العلّة والمعلول[٤].

(١) ابن طاووس، علي بن موسى بن جعفر: إقبال الأعمال، تحقيق جواد القيومي الإصفهاني، ط١، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤١٦هـ.ق، ص٢٩٩.
(٢) النور: ٣٥.
(٣) الخميني، تفسير سورة الحمد، م.س، ص١٠٢-١٠٣، ١٣٢-١٣٣.
(٤) الشيرازي، محمد: الأسفار الأربعة، ج٢، ص٢١٦.

وفي الفكر الفلسفي للإمام قدس سره: إنّ العلّية ومبدئية واجب الوجود - تعالى شأنه - ليست مثل علّية الفاعل الطبيعي الذي يوجد تغييرات في المواد الموجودة أصلاً، فالله تعالى ليس كالنجّار والبنّاء، بل الله تعالى يُوجد الأشياء بالإرادة نفسها، بدون أيّ سابقة لها، وإنّ علمه وإرادته تعالى علّة ظهور وجود الأشياء. ويوجد مثالان يمكن أن يقرّبا هذه الرابطة إلى الذهن إلى حدّ ما، الأوّل: مثال البحر، فالموج بالنسبة إلى البحر، ليس بخارج عنه. فالبحر يتموَّج، وعندما نشاهد ذلك نرى شيئين: البحر وموج البحر، فالموج مفهوم عارض على البحر، ولكن في الواقع إنّه - أي الموج - ليس بشيء من دون البحر. فموج البحر هو البحر نفسه. والعالم أيضاً هو موجة. ومثال آخر: نسبة الذهن إلى النفس الإنسانية، فإنّ النفس تُوجِد الصور بمجرّد إرادتها وتصميمها على خلق تلك الصور الذهنية وتظهر ما هو في غيب هويّتها[1].

ويصرّح الإمام قدس سره بأنّ هذا المطلب من مسائل توحيد المطلق، وإن كان يثبت بالبرهان، إلا أنّه بحاجة إلى مشاهدة، لأنّ البرهان أعمى، يحجّر ويمنع الرؤية. فالقلب ينبغي أن يدرك هذا المطلب، لأنّه كالطفل يجب أن تعلّمه كلمة فكلمة، وعلى الذي يدرك عقله بالبرهان على المسائل أن يوصلها إلى قلبه بالإملاء. وعندما تصل إلى القلب بالتكرار والمجاهدة وأمثالها، فإنّ القلب يؤمن «**ليس في الدار غيره ديّار**». وإذا لم يتمكّن من الإدراك، فإنّه على الأقلّ لا ينكر. فعلى الإنسان إذا لم يدرك شيئاً أن لا ينكره، وأن يعطي احتمالاً للصحّة: «**كلّ ما قرع سمعك، ذره في بقعة الإمكان**»[2].

ومن يتصفّح بتأمّل صحيفة حياة الإمام قدس سره، يدرك بوضوح أنّه علاوة على البرهان قد خطا خطوات سامية في مسير شهود الحقائق والأسرار المتعالية. وما أثبته بالبرهان الفلسفي والتأمّل العقلاني قد أورده إلى قلبه

(١) الخميني، تفسير سورة الحمد، م.س، ص١٥٩-١٦١.
(٢) م.ن، ص١٦٣-١٦٤.

وآمن به. وهكذا إيمانه بالتوحيد والإيقان الشهودي للكمال المطلق. وهذا لم يكن فقط أساس مباني تمام أفكاره وعقائده في المجالات المختلفة، السياسية، والفلسفية، والاجتماعية، والدينية، وغيرها، بل يجب أن يفسّر ويُنظر إلى تمام مواقفه وأعماله السياسية وغير السياسية بالتوجّه والالتفات إلى هذا المبنى الأصيل.

وفي الواقع، ما يجعل الإمام قدس سره إماماً، ويميّزه عن الآخرين، ويعطيه النظر العميق، هو: الصلابة، والشجاعة، والزهد، والهمّة العالية، واعتماده على النفس، والعبادة، والخضوع، والشعبية، وبساطة العيش، وعشرات الخصال السامية الخاصّة، التي مكّنته من مواجهة الأعداء، حتى غدا كالجبل الصلب، لا يتردّد في مواجهتهم لحظة واحدة، ولا يخشاهم، ويعرفهم جيّداً ويدرك مكائدهم، وكلّ ذلك بفعل عقيدته التوحيدية. وهو بنفسه، وقبل أيّ شخص وأكثر من أيّ شخص، قد سمع بروحه موعظة الحقّ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى﴾[1]، وأوجد ثورة وانقلاباً من داخله، وسيطر على شيطان نفسه الأمّارة وعنانها.

من هنا، نشهد وندرك جيّداً - من خلال سيرة الإمام قدس سره - أنّ الطريق الوحيد لإصلاح الداخل والخارج، والروح والعالم، والدنيا والآخرة يكمن في القيام لله.

فأوّلاً: قام الإمام قدس سره بالقيام الداخلي وأنجى نفسه، ثمّ تحرّك لنجاة أمّته، من نير الأسر الداخلي والخارجي من خلال القيام لله، وهكذا كسر رهبة أعداء الأمّة، مثل النظام الشاهنشاهي، وأمريكا وإسرائيل الذين يشوّشون أفكار الآخرين ويخدعونهم ويرهبونهم.

لذا، كان التصميم على إسقاط نظام الاستبداد، والمواجهة مع أصنام العالم، هما فقط بعهدة الموحِّدين في العالم، ولا يمكن أن يخطر ذلك وحده على ذهن أيّ سياسي.

(١) سبأ: ٤٦.

ثالثاً: أسس توجّه دعوة الأنبياء عليهم السلام من وجهة نظر الإمام الخميني قدس سره:

من المسائل البارزة والأساسية لفكر الإمام قدس سره، الاعتماد على التوحيد بعنوان أنّه هدف بعثة الأنبياء عليهم السلام، حيث يقول في هذا المجال: «**ما بعث له الأنبياء عليهم السلام، وكانت كلّ الأعمال مقدّمة له، هو بسط التوحيد ومعرفة الناس للعالم**»(١). ويؤكّد في موارد أخرى: «**ترجع كلّ مقاصد الأنبياء عليهم السلام إلى كلمة واحدة وهي معرفة الله**»(٢). والحال أنّ بعض المؤلّفين المعاصرين قد اهتموا بنظرية « **الله، هدف بعثة الأنبياء عليهم السلام** »، ولكنّ الشرح والتفسير الذي عرض من قِبَلهم على أفق متضاد مع فكر الإمام قدس سره بالنسبة لهذه النظرية(٣). فهم يعتقدون بأنّ إبراهيم عليه السلام باني مذهب التوحيد، لم يتحدّث مع نمرود إلا بالدعوة لعبادة الله، ولم يكن له اعتراض على سلطانه. وفي الثقافة البشرية يهدم قصر الشرك ويهاجر إلى أرض غير ذي زرع «**مكة**»، ليبني أولاده بيت الله، ويقيموا الصلاة. والنبي موسى عليه السلام -أيضاً- مثل النبي إبراهيم عليه السلام لم يكن يهتمّ بإمبراطورية فرعون، ولم يقصد تهديمها، وإنّما طالبه، بقول ليّن، بتحرير بني إسرائيل(٤). وفي هذا التفسير تأكيد على أنّ حافز الأنبياء عليهم السلام هو الثورة على محورية الإنسان وسوقه إلى خالقه. ولكن قد يُقال: للوصول إلى المجتمع التوحيدي ومحورية الله لا شأن لنا بعروش الظالمين؟!

فالمشكلة الأساس في نظرية «**الله، هدف بعثة الأنبياء عليهم السلام**» تكمن في أنّ التوحيد الخالص يُترك في وسط الطريق مبتوراً، لأنّه يتوقّف على أقصى حدّ في توحيد الذات والصفات، ولا يرتقي إلى آخر المراحل

(١) الخميني، صحيفة النور، م.س، ج٢، ص٢٢٧.
(٢) م.ن، ج١٩، ص٢٨٣.
(٣) انظر: بازركان، مهدي: الآخرة والله «هدف بعثة الأنبياء»، الخدمات الثقافية رسا، ١٣٧٧هـ ش.
(٤) انظر: م.ن، ص٢٦-٣٩

المتكاملة للتوحيد، وهي مرحلة توحيد الربوبية التشريعية التي تعتبر حدّ نصاب التوحيد والمرحلة الأساسية لتعارض ميول نفس الإنسان ورغباته في مقابل التوحيد.

وما يجعل هذا التفسير في قطب مخالف لفكر الإمام قدس سره، أنّه يعتقد أنّ المسالك التوحيدية والأديان السماوية تهتمّ بكلّ أبعاد البشر، ولها برنامج للإنسان في تشكيل العائلة، وكيفية التربية، وكلّ أبعاد حياته في العالم، حتى قبل أن يولد مولوده الأوّل. يقول الإمام قدس سره في شرحه لمقصد الأنبياء عليهم السلام، بالاعتماد على أنّ الأنبياء عليهم السلام أتوا لإصلاح الإنسان: «**إنّ إقامة العدل هي إصلاح الإنسان**»، لأنّ العدل والظلم سلوك للإنسان يصدر عنه، و«**إنّ إقامة العدل هي تحويل الظالم إلى العدل**»[1]. ففي فكر الإمام قدس سره، يعدّ تشكيل الحكومة والتدخّل في السياسة جزء من أهداف الأنبياء عليهم السلام، ولكنّه ليس الهدف الغائي والنهائي، فالحكومة هدف متوسّط المدى للأنبياء عليهم السلام، وفي الواقع هي أداة للوصول إلى أهداف عالية وأسمى. وفي هذا الصدد يقول الإمام قدس سره: «**لم يبعث الأنبياء عليهم السلام ليصنعوا حكومة. وما يفعلون بالحكومة؟ نعم قاموا بذلك، ولكنّهم بعثوا ليديروا الدنيا، ويديروا الحيوانات، ويديروا أعمالهم. طبعاً، إنّ بسط العدالة هو بسط صفة الحقّ تعالى، فهم يبسطون العدل، والعدالة الاجتماعية بيدهم، ويؤسّسون الحكومة، الحكومة العادلة، ولكن ليس هذا مقصدهم، وكلّ ذلك هو وسيلة لإيصال الإنسان إلى مرتبة أخرى بعث لها الأنبياء عليهم السلام**»[2].

بناءً عليه، نلحظ في فكر الإمام قدس سره نوعين من الأهداف للأنبياء عليهم السلام. وهذه الأهداف ليس بعضها في عرض بعضها الآخر، بل بعضها في طول بعضها الآخر، حيث إنّ العبور من مرحلة لازمة للوصول إلى مراحل أعلى يتجلّى في ما عبّر عنه الإمام قدس سره بكلمة واحدة، هي «**معرفة**

(١) الخميني، صحيفة النور، م.س، ج٦، ص١٦٣-١٣٤.
(٢) الخميني، تفسير سورة الحمد، م.س، ص١٢٩.

الله». وإصلاح الإنسان وتربية البشر أيضاً هما من أهداف الأنبياء عليهم السلام، للوصول إلى هذا التوحيد الخالص: **﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾**[1]. ومحورية الإنسان غير قابلة للجمع مع التوحيد.

وعليه، إنّ الوصول إلى التوحيد يمرّ من مسار إقامة العدل، وتشكيل الحكومة والدخالة في الأبعاد الاجتماعية للحياة البشرية أيضاً، والتي هي جزء من أهداف الأنبياء عليهم السلام لتربية الإنسان. وهذا الإنسان هو الموحِّد الواقعي والهدف الأسمى لنهضة الأنبياء عليهم السلام. ويمكننا أن نرسّم المراحل الثلاث الآنفة الذكر، وفق التالي:

إقامة العدل وتشكيل الحكومة ⇦ تربية الإنسان ⇦ معرفة الله وبسط التوحيد.

ففي فكر الإمام قدس سره، يُعدّ مقصد بسط التوحيد ومعرفة الله مقصداً عالياً لحركة الأنبياء عليهم السلام. وللوصول إلى هذا الهدف السامي عليهم تأدية عملين أساسيين:

الأوّل: تحرير البشر من أسر النفس (الشيطان الداخلي).

الثاني: تحرير البشر من أسر الظالمين (الشيطان الخارجي).

وهذان العملان متبلوران في سيرة أنبياء الله تعالى عليهم السلام، كالنبي موسى عليه السلام، والنبي عيسى عليه السلام، والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله. فأسلوب النبي عيسى عليه السلام هو هذا أيضاً، وإن كانت تعليماته لمواجهة المتكبّرين أقلّ حضوراً، وسبب ذلك وسرّه العمر القصير للنبي عيسى عليه السلام، وقلّة تماسّه مع الناس[2]. وهكذا تطرح مقولة الحرّيّة في المحتوى الواقعي للتوحيد.

ويُستمدّ فكر الإمام قدس سره من مباني التوحيد المتبلورة في آيات القرآن الكريم، حيث يقول الله تعالى في بيان هدف البعثة: **﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾**[3]، حيث تعدّ عبادة الله

(١) الجاثية: ٢٣.
(٢) الخميني، صحيفة النور، م.س، ج١٨، ص٣٢-٣٣.
(٣) النحل: ٣٦.

واجتناب الطاغوت من أهداف البعثة. فإلى جانب الدعوة إلى التوحيد نشاهد الأنبياء عليهم السلام يناضلون دون لين ضدّ الطاغوت والظالمين، فلو كان إبراهيم الخليل عليه السلام لم يتحدّث مع النمرود إلا دعوة إلى عبادة الله، ولم يكن له شأن في ردعه عن تسلّطه، ولو كان النبي موسى عليه السلام وكذلك النبي إبراهيم عليه السلام لا شأن لهما مع إمبراطورية فرعون، ولو كان رسول الإسلام صلى الله عليه وآله الذي دعا الناس إلى التوحيد لا شأن له مع جبابرة جزيرة العرب وظالميها، إذن، كيف يمكن تفسير الحرب ما بين الموحِّدين والمشركين على طول التاريخ؟ فعندما يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[1]، فلماذا قاوموا هذه الرسالة الحكيمة، ولم يألوا جهداً في تعذيبه هو وأتباعه؟ ولمّا كان بيانه: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[2]، فكيف قاموا لمقاتلة هذا الفكر؟ فلو كان هذا التفكّر والعقيدة لا شأن لهما مع مصالح أرباب الكفر والظلم ولم تهدّدها، وكانا صرف عقيدة وفكر، فلا ينبغي أن يصطف المخالفون أو أن يكون لهم ردّة فعل. فالمقابلة والقتال والعنف تقوم عندما تتعرّض مصالح القوي للتهديد، فلو كان فكر التوحيد الخالص في باله التوسّع في المجتمع، فإنّه ينمّي هذا الشأن في داخله، ويؤدّي ذلك إلى آثار ولوازم لا يرغب بها الكافرون وأرباب الظلم. فلوازم التوحيد الخالص وآثاره تجلب الإنسان إلى حقل المجتمع وتضعه في مشهد مقابل لمصالح الطواغيت، لأجل إقامة العدل، وبسط القسط، وتحرير البشرية من الظالمين. وبلا شكّ، فالتوحيد المحدود بالذكر اللساني فقط، بحيث لم يحضر بتمام قوّته في كامل مراحل التكوين والتشريع، لن يتعارض مع مصالح المشركين، ولن يقدموا على أيّ شيء ضدّه، لأنّه لم يدعُ أحداً للمقابلة، وكان بعيداً عن المقولة السياسية. والسرّ في أنّ القرآن الكريم يدعو اليهود والنصارى بالمشركين، فذلك لقبولهم بأوامر أحبارهم ورهبانهم من دون أيّ معارضة: ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ

(١) الكافرون: ٦.
(٢) البقرة: ٢٥٦.

﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾[١]. وفي فكر الإمام قدس سره، إنّ الأنبياء عليهم السلام لم يريدوا الحرب، ولم تكن السيطرة على البلاد دعوة لهم[٢]، ولكن من حيث إنّهم بُعِثُوا لبناء الإنسان امتثالاً لكلمة الله، كان لهم برنامج لتمام أبعاد البشر. ففي المسالك غير التوحيدية الأخرى يُطرح كلام عن السياسة والقدرة، والهدف هو حفظ الدنيا وإقرار النظام، ولا شأن لهم بباطن الإنسان ومعنوياته، على خلاف المسالك التوحيدية والأديان السماوية، حيث تهتمّ بتمام أبعاد البشر، من شروط الزواج، وأحكام فترة الحمل وآدابها، إلى الإرضاع والتربية، وهكذا، لأنّ الأديان الإلهية تلتفت إلى تمام الأبعاد الإنسانية، وقد أتت لتربية البشر[٣]. وفي هذا الإطار يتّضح التوجّه إلى السياسة ضمن دعوة الأنبياء عليهم السلام.

رابعاً: تفاعل التوحيد مع السياسة في فكر الإمام قدس سره:

كما مرّ في شرح المراحل المختلفة للتوحيد في النظام المعرفي الإسلامي، من أنّ أحد أبعاد الربوبية الإلهية هو الربوبية التشريعية التي على أساسها يعتقد الإنسان الموحِّد أنّ الربوبية الإلهية، كما أنّها تقتضي إعطاء الاختيار في الإرادة الحرّة وتأمين أسبابها للإنسان، فإنّها كذلك تضع في تصرّفه تعليمات تبيّن له السلوك الصحيح الذي يوصله إلى الفلاح الأبدي في حال اتّباعه. وعليه، ينبغي للإنسان أن يتّبع القانون والأوامر الإلهية فقط لكي يسعد. لذا، يُعدّ التوحيد في التشريع والتوحيد في الحاكمية من أبعاد الربوبية التشريعية.

فالإمام قدس سره، من هذا المنطلق، عندما يتحدّث عن مشروعية الحكومة وحقّ الحاكمية، يعتقد أنّ تأسيس الحكومة والنظام السياسي هو أحد الاحتياجات الضرورية للبشرية، التي تعتبر من أحكام العقل البيّنة

(١) التوبة: ٣١.
(٢) الخميني، صحيفة النور، م.س، ج٣، ص٢٨٣.
(٣) الخميني، صحيفة النور، م.س، ج٦، ص١٦٣-١٦٤.

والواضحة، إلا أنّه بحكم العقل، يجد لزاماً، من تأسيس حكومة مطاعة من الناس، أن تكون من شخص قانوني، يملك كلّ شيء، ويفعل أيّ تصرف بها، ويكون تصرّفه في ملكه، وشخص كهذا ليس إلا إله العالم ومالك تمام الموجودات وخالق الأرض والسماوات.

إذن، أيّ حكم يجريه، أو تصرّف يقوم به، يقام في مملكته، وإذا أعطى حكومة لشخص وأمر بلزوم أطاعته بواسطة الأنبياء عليهم السلام فعلى البشر أن يطيعوه، ويجب أن لا يقبلوا أيّ حكم غير حكم الله، أو غير حكم من عيّنه الله تعالى، لأنّ الآخرين بشر مثلهم، عندهم شهوة، وغضب، وشيطنة، وخداع، وهم يريدون مصالحهم، ويهدرون مصالح الآخرين في سبيل مصالحهم[١].

إنّ الإمام قدس سره علاوة على أنّه أثبت التوحيد في الحاكمية السياسية ببرهان عقلي عالٍ، يذكر آيات سياسية من القرآن بوصفها شاهداً على ذلك[٢]، ومنها:

قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[٣].

وقوله تعالى - أيضاً -: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[٤].

وقوله تعالى - أيضاً -: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ﴾[٥].

فإنّ الإمام قدس سره، بالاستفادة من البرهان الفلسفي، والتأكيد على وجود غريزة الانتفاع والأنانية عند البشر، وبالاستفادة من الآيات القرآنية - أيضاً - يربط الحاكمية السياسية بالتوحيد، ويعدّها من مراتبه. وتلخيص

(١) الخميني، روح الله: كشف الأسرار، ص١٨١-١٨٢.
(٢) انظر: م.ن، ص١٨٣-١٨٤.
(٣) المائدة: ٤٤.
(٤) المائدة: ٤٥.
(٥) المائدة: ٤٨.

مبنى الفكر السياسي للإمام قدس سره هو أن لا أحد يمتلك حقّ الحكومة على أحد إلا الله، وكذلك لا يمتلك حقّ التشريع، والله - بحكم العقل - يجب أن يشكّل حكومة للناس ويضع القوانين. وأمّا القانون فهو قانون الإسلام الذي وضعه، وهذا القانون للجميع وللأبد، وأمّا الحكومة، ففي زمان الرسول صلى الله عليه وآله للرسول صلى الله عليه وآله، وفي زمان الإمام عليه السلام للإمام عليه السلام، والتي أوجب الله على البشر كافّة إطاعتهم، بنصّ القرآن، وفي هذا الزمان الحكومة والولاية للفقهاء[١].

إنّ هذا الأساس والمبنى يقع في محور فكر الإمام قدس سره، ويعدّ من محكمات مبانيه السياسية، ومن أصول توجّهه على طول حياته السياسية، وعلى أساسه سيتكشف رمز الإنسان الموحِّد وسرّ دخوله في حقل المجتمع، ومقولات مثل: السياسة. فالموحِّد الحقيقي في عشقه لله تعالى يجد أنّ كلّ شيء تجلّ وآثار للحقّ تعالى، ويرى أنّ تمام الوجود هو كلمات وعلامات ذات الربوبية، فيجد الله تعالى شاهداً وناظراً في كلّ شيء وفي كلّ مكان. ويأتي إلى الميدان للتقرّب إلى الله، والقيام بالتكليف، وإيفاء الأوامر التي وضعها الله تعالى على عاتق الموحِّد، عن طريق الوحي، ويقدم على دور مبادر في حقل الحياة الاجتماعية. وبتعبير الإمام قدس سره: «**يعمل إنّما لله، ويضرب بالسيف لله، ويقاتل لله، فقيامه لله، وكلّ هذه الحروب في مقابل الكفّار وفي مقابل الظالمين كانت من أصحاب التوحيد والداعين**»[٢].

وعن الإمام الرضا عليه السلام في حديث مشهور: سمعت عن أبي موسى بن جعفر عليه السلام عن أبيه عليه السلام وآبائه عليهم السلام، عن أمير المؤمنين عليه السلام عن الرسول صلى الله عليه وآله عن جبرائيل عليه السلام، هذا الحديث القدسي: «**كلمة لا إله إلا الله حصني، فمن دخل حصني أمن من عذابي**»[٣]. وعندها، وبعد مقدّمات

(١) الخميني، روح الله: كشف الأسرار، م.س، ص١٨٤-١٨٥
(٢) الخميني، تفسير سورة الحمد، م.س، ص١٥٠-١٥١
(٣) م.ن، ج٢١، ص٢٤.

خاطب الحضور، وفي تكملة حديثه قال عليه السلام: «**بشرطها وشروطها، وأنا من شروطها**»، فتكملة هذه الرواية مبيّنة للصلة العميقة ما بين التوحيد والإمامة، وارتباط كلمة لا إله إلا الله باتّباع النظام السياسي الآتي من متن الأمر الإلهي.

ووفقاً لهذه الرواية الشريفة، نتعلّم أنّ كلمة التوحيد تفيد الإنسان وتجعله سعيداً وتدخله في حصن حصين آمن من لهب النار. وهذا التوحيد خالص نقي، ومرتبة خلوص التوحيد باتّباع تام وكامل للأوامر الإلهية، في إطاعة الإمامة والمؤسّسة التي تقود المجتمع بأمر من الله تعالى. وبالطبع، حيث إنّ هذه المرحلة من أعلى مراتب التوحيد ودرجاته، ووفقاً لما ورد في الروايات، فإنّ لها مكانة رفيعة وخاصّة، واجتيازها مكلف وصعب.

خامساً: التوحيد، المبنى الفكري للحكومة الإسلامية:

بناءً على ما تقدّم، فإنّ مقولة السياسة في نهضة الأنبياء عليهم السلام تتشكّل على أساس التوحيد ومحوريّته، وهذا ما نشاهده في الثورة الإسلامية الإيرانية وقيادة الإمام الخميني قدس سره، فالجذر الأساس للثورة هو النداء التوحيدي للإمام قدس سره. وعلى هذا الأساس، يطرح «**التوحيد**» بعنوان المبنى الرئيس للفكر السياسي للإمام قدس سره الذي ينبغي أن يلاحَظ ويقوَّم في السيرة النظرية العملية لحكومته. والانتباه والتفكّر في هذا المبنى أفضل شعاع يضيء للمستقبل في تحكيم مباني الثورة والحكومة الإسلامية وحفظها، حتى الوصول إلى المقصد المنشود.

وسيتطلّب ذلك من الذي يريد أن يدرس الثورة الإسلامية ومبانيها وأهدافها ومثلها، النظر والبحث في أوّل مستند تاريخي ملهم ثمين من الإرث الذي لا يزول للإمام قدس سره[1]، حيث يبيّن قدس سره في هذا المستند

(١) الخميني، صحيفة النور، م.س، ج١، ص٣-٤.

في تفسيره للآية الكريمة: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى﴾[1]، أنّ الطريق الوحيد لإصلاح العالم يكمن في القيام لله. فالقيام لله هو الذي أوصل إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام إلى منزلة الخلّة وحرّره من الآثار المتنوّعة لعالم الطبيعة، والقيام لله هو الذي جعل موسى الكليم عليه السلام يهيمن على الفراعنة ويزيل تمام عروشهم وتيجانهم، ويوصله إلى ميقات المحبوب، والقيام لله هو الذي أعطى الغلبة لخاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم على تمام عادات الجاهلية وعقائدها، وأتاح له صلى الله عليه وآله وسلم تطهير بيت الله من الأصنام، وإحلال التوحيد والتقوى مكانها، والقيام لله هو الذي أوصله صلى الله عليه وآله وسلم - أيضاً - إلى مقام قاب قوسين أو أدنى.

إنّ الإمام قدس سره في هذا البلاغ الذي نشر في تاريخ ١٣٢٣/٢/١٥ هـ.ش، كان في عمر الثلاث والأربعين، وبعد ذكر «**القيام لله**» بعنوان أنّه الطريق الوحيد لإصلاح الداخل والخارج، يعدّد الأيام السوداء والقاتمة للمجتمع الإيراني، بل كلّ الملل الإسلامية في ذلك الزمان، ويبيّن أنّ أصلها وسببها هو الأنانية وترك القيام لله، وهذا ما أوصلنا إلى هذا المصير الأسود، بحيث هيمن علينا فيه كلّ العالم، وجعل البلاد الإسلامية تحت نفوذهم.

فالقيام للمنافع والمصالح الشخصية هو الذي خنق روح الوحدة والأخوّة في الملّة الإسلامية، وسلّط الفاسقين على مصير المسلمين، حيث اشتغل هؤلاء الفاسقون وعبّاد الشهوات على تدمير الحرث والنسل، وإجراء القوانين المخالفة للدين، ونشر الفحشاء والفساد الأخلاقي.

من هنا، دعا الإمام قدس سره كلّ أخيار المجتمع، من علماء الدين، والمثقّفين، والمتديّنين، والوطنيين إلى سماع الموعظة الإلهية: «**اليوم هو يوم هبّ فيه نسيم روحاني إلهي، وهو أفضل يوم للقيام بالإصلاح**»[2].

واعتماداً على ما تقدّم، يتّضح أنّ التوحيد والقيام لله يشكّلان محور كلّ حكومة إصلاحية.

(١) سبأ: ٤٦.

(٢) الخميني، صحيفة النور، م.س، ج١، ص٤.

ويعتبر العرفاء[١] أنّ «**القيام لله**» هو أوّل منزل للسلوك، ويسمّونه باسم «**اليقظة**». ويشير الإمام قدس سره - في فكره الجامع للدين في مستنده الذي تقدّم - إلى أنّ هذه اليقظة هي رمز التوفيق للرشد الداخلي والكمال الخارجي، وعلى هذا الهدف رسم مسير نهضته على طول فترة نضاله الطويلة وبعد انتصار الثورة. وما تفضّل فيه قدس سره في باريس للمراسل الصحفي لمجلة التايمز هو نفسه ما تفضّل به قبل أربعة وثلاثون عاماً في مدينة قم المقدّسة، فقد أعاد قوله مجدّداً بأنّنا نستنتج من عقيدة التوحيد - وعلى أساسها - كلّ المقولات الثقيلة والقيّمة، كالحرية، والمساواة، ونفي التسلّط والتمييز العنصري، ومواجهة الاستبداد والاستعمار[٢].

وبعد انتصار الثورة، عندما كان الإمام قدس سره يفسّر لأمّته سورة التوحيد اعتمد - أيضاً - على اليقظة «**القيام لله**»، بوصفها أوّل موعظة إلهية، وعلّم مجتمعه طريق بناء النفس، وطي طريق السعادة الأخروية[٣]. وكذلك يمكننا أن نرى نداء الإمام قدس سره التوحيدي في رسالته إلى ميخائيل غورباتشوف[٤].

وقد حضر هذا المضمون بنفسه بشكل متواتر في بلاغاته، وبياناته، وخطبه إلى أتباعه ومحبّيه. ويشار إلى وصيّته السياسية الإلهية، لنثبت ذلك في صدر التاريخ، ونظهرها للجميع، فمن أين يبدأون لو أنّهم أرادوا دراسة الثورة وأهداف الأمّة الإيرانية، واستيضاح تضحيات النهضة، والمباني الأساسية لقائد الثورة الكبير قدس سره وأصول توجّهاته على طول عشرات السنوات من إمساكه لدفّة القيادة؟ حيث عرض الإمام قدس سره ذلك بنحو مختصر في خاتمة وصيّته: «**ما نهضتم من أجله - أيها الشعب الشريف والمجاهد، وأنتم ماضون فيه، وبذلتم من أجله الروح والمال**

(١) الكاشاني، عبد الرزاق: شرح منازل السائرين، ص١٧.
(٢) الخميني، صحيفة النور، م.س، ج٤، ص١٦٦-١٦٧.
(٣) الخميني، تفسير سورة الحمد، م.س، ص١٢٨-١٤٥.
(٤) انظر: نداء التوحيد، رسالة الإمام الخميني قدس سره إلى غورباتشوف بتاريخ: ١٣٦٧/١٠/١١ هـ.ش، نشر مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني قدس سره.

وتبذلون - هو أسمى وأعلى وأثمن هدف وغاية عُرض - أو يعرض - منذ صدر العالم في الأزل، وبعد هذا العالم إلى الأبد. وهو مبدأ الألوهية بمعناه الواسع، وعقيدة التوحيد بأبعادها السامية، التي هي أساس الخلق، وغايته في رحيب الوجود، وفي درجات الغيب والشهود ومراتبهما. وقد تجلّى ذلك في المدرسة المحمدية ﷺ بتمام المعنى والدرجات والأبعاد. وكانت جهود جميع الأنبياء العظام عليهم السلام والأولياء المعظّمين عليهم السلام تهدف إلى تحقيق ذلك. والاهتداء إلى الكمال المطلق، والجلال والجمال غير المتناهيين ليس ميسور إلا به... إنّه هو الذي شرّف الترابيين (الأرضيين) على الملكوتيين، وما هو أسمى... وما يحصل للترابيين بالسير فيه لا يحصل لأيّ موجود في جميع أرجاء الخلق في السرّ والعلن»[1].

هذا درس تناله الأمّة المسلمة من مرآة كلام الإمام قدس سره وسلوكه، ويتجلّى في الشعارات للأيام التي تسبق يوم ٢٢ بهمن١٣٥٧هـ.ش(ذكرى انتصار الثورة) وتليه، حيث ندرك المثل التوحيدية من خلال مرورنا مجدّداً على الشعارات التي كانت محور ذلك العصر (اللّه أكبر/ الخميني محطّم الأصنام/ روحي الخميني/ قائدي الخميني)، فنرى رسائل الإمام قدس سره انعكست في مرآة شعارات الأمّة، وانعكست مُثُل الأمّة في مرآة كلمات الإمام قدس سره. فالأمّة تبحث عن إبراهيم عليه السلام في الإمام الخميني قدس سره الذي قام ضدّ النمرود بفأسه، حيث يرى الإمام قدس سره في أمّته تحقّق أهداف الأنبياء عليهم السلام وأولياء اللّه عليهم السلام.

ومن غير الصواب أنّ نفسّر قيادة الإمام قدس سره بالقيادة الكاريزماتية، وأن نحيل مشروعيّة قوّته وقدرته إلى نوع من مشروعية الانبهار، فهذا التفسير ناشئ من عدم معرفة الإمام قدس سره وعدم إدراك أمّته.

وبلا ترديد، لو لم يُعَدّ الإمام قدس سره بأنّه حامل لواء التوحيد ورجلاً من

(١) انظر: صحيفة الثورة، الوصية السياسية الإلهية للإمام الخميني قدس سره، إعداد ونشر وزارة الإرشاد، ١٣٦٨هـ.ش.

أصل إبراهيمي وعالماً حكيماً ممّن عرِّفوا في الروايات بأنّهم أفضل من أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام، ولو لم يُعَدّ ملايين من عاشقي أهل البيت عليهم السلام أنّه نائب الإمام المهدي عجل الله فرجه ومرجع تقليد، لما كان بمقدوره أن يفعل شيئاً، وأن يسقط نظام سلطنة دام لألفين وخمسمائة عام، بحيث لا يخطر ببال أيّ سياسي أن يفعل ذلك، وأن يقطع يد الأجانب عن نهب مقدّرات إيران. فكم رأت الأمّة الإيرانية مصلحين مميّزين بخصائص بارزة، روحانيين أو غير ذلك، ولأنّهم لا يحملون لواء الزعامة والمرجعية، فإنّ حركتهم بقيت مبتورة، ولم تسر الأمّة الإيرانية خلفهم بشكل موحَّد متكامل، في طول الحياة السياسية الإيرانية. ففي ثورة التنباك، والمشروطية، والثورة الإسلامية، وغيرها تظهر حقيقة أنّهم يثقون بمن كان حاملاً للواء المرجعية ويعتمدون عليه ويتبعونه ويبايعونه، لأنّه يخاف من الله، ولأنّه من نواب إمام الزمان عجل الله فرجه المستقيمين. فهذه المشروعية والإقبال الكامل والعامّ هي ما يقال عنه في لسان الدين بالقيادة الولائية، وهي تختلف بشكل عميق عن القيادة الكاريزماتية.

خاتمة:

يبقى في الختام أن نشير إلى مسألة الانتظار من الدين والمعرفة الدينية، وما كان يراه الإمام قدس سره من شروط لتحقيق عزّة المسلمين وشموخهم. إلا أنّ حصر نظرية الإمام قدس سره في هذه النقطة جفاء كبير له[1]. ففكر الإمام قدس سره في المعرفة الدينية هو فكر جامع، وفي مسألة الانتظار من الدين، فإنّ الإمام قدس سره ينظر إلى الدين لا بوصفه ديناً مقتصراً على الدنيا فقط أو على الآخرة فقط، وتوجّهه الفكري العام يتمحور - كما تقدّم - حول التوحيد والقيام لله، ففي الفكر التوحيدي يوجد انقلاب داخلي وانقلاب خارجي، بحيث يرسم عالم الديموقراطية وعالم الثورة من دون أن تتفرّد لوازم وآثار أيّ واحد منهما وتتحدّد بها. فعقيدة التوحيد، هي وصول إلى الكمال المطلق. وفي الكمال المطلق تحضر كلّ الأشياء الجميلة والجيّدة في مكان واحد. وعقيدة التوحيد هي بعنوان عقيدة فوق كلّ العقائد، وهي هدية أعطيت من العالم الشرقي، حيث تطلع شمس الوحي، إلى العالم الغربي، بعد أن أفل فيه ضوء الوحي والتوحيد. وفي قرية نوفل لوشاتو يصدح[2] مرّة أخرى نداء التوحيد للأنبياء الإلهيين عليهم السلام، ففي شتاء سنة ١٣٥٧ هـ.ش يُسمع هذا اللحن الجميل اللطيف، في قلب عالم التكنولوجيا البارد المتجمّد، وتدبّ مرّة أخرى حرارة الأمل، وتتحرّك الأرواح الباردة والمتجمّدة بحركة جديدة في مسير الرشد إلى الفضائل الأخلاقية، وكسب المكارم الإنسانية، وتجلّي أسماء الله الحسنى وصفاته في عالمهم المتعب.

إن الذي تقدّم يمكنه أن يكون أنموذجاً ومصداقاً من مصاديق طرح خطّة العلوم الإنسانية، لأنّه قد اتّضح على أساس ذلك وجود أصول موضوعية في بحث النظام السياسي، وكذا المواضيع ذات العلاقة

(١) انظر: خطاب عبد الكريم سروش في مؤتمر شرح الثورة الإسلامية، صحيفة صباح اليوم، ١٣٧٨/٧/١٤هـ.ش.
(٢) إشارة إلى المقابلة الصحفية مع جريدة التايمز اللندنية، في تاريخ: ١٣٥٧/١٠/١٨هـ.ش، انظر: الخميني، صحيفة النور، م.س، ج٤، ص١٦٦-١٦٧.

بالسياسة والاجتماع، كالحرية، والعدالة، والتطوّر، والنمو، والقانون الدستوري، وغير ذلك، حيث تتكوَّن الأفكار والمذاهب الفكرية المختلفة، وتتحرّك بناءً على هذه الأصول الموضوعية، وتلتزم بنتائجها.

بناءً على ما تقدّم:

- بشكل طبيعي لا يمكن للأشخاص الذين يؤسّسون العلوم الإنسانية على اختلافها، كالاقتصاد، والسياسة، وعلم الاجتماع، وعلم النفس، والإدارة، والتعليم والتربية، على أسس ومبادئ فكرية خاصّة، والذين يلتزمون بما يترتّب عليها، لا يمكن لهؤلاء اعتبار تلك النتائج علماً خاصّاً كاشفاً عن الواقع الخارجي، واعتبارها مثل قضايا الرياضيات والبراهين العقلية القطعية.

بناءً على هذا، ففروع العلوم الإنسانية - على اختلافها - تقوم في الدرجة الأولى على الأصول الموضوعية التالية: إنكار روح الإنسان، وإنكار المعاد والقيامة، وإنكار السعادة التي تكون وراء اللذة الدنيوية، وهي في الحدّ الأدنى تحمل شكّاً وترديداً بهذه القضايا أو ترتّب عليها حكم القضايا الجدلية. وفي الدرجة الثانية تقوم بالاستنتاج وترتيب قضايا أخرى على أساس الأصول الموضوعية المتقدّمة. فهذه الفروع لا يمكنها أن تجعل النتاج الفكري للآخرين، الذي لا يؤمن بتلك الأصول الموضوعية، علماً خاصّاً أو أن تدفعه لقبول هذه النتائج.

- على الأشخاص الذين يؤمنون بأصول موضوعية أخرى اللجوء إلى التحقيق والتفكير في المبادئ والأصول الموضوعية التي يحملونها، ومن ثمّ تنقيحها بشكل كامل، والكشف عن لوازمها، والوصول إلى النتائج التي تترتّب عليها.

طبعاً الأشخاص الذين يعتمد سلوكهم العلمي على مبادئ الإيمان بالتوحيد، والقيامة، والسعادة الأبدية للإنسان، وخلود الروح، هؤلاء يؤسّسون للعلوم الإنسانية على أساسها، فيختلف توجّههم عن العلوم

الإنسانية التي يؤسّس لها الذين لا يؤمنون بهذه المبادئ.

ومن الواضح في مسألة العلوم الإنسانية - الإسلامية أنّ النقطتين المتقدّمتين هما المنطلق والبداية، فعندما تكون المبادئ مختلفة عند ذلك يكون البناء الذي يرتفع فوق هذه المبادئ مختلفاً، وهذا يعني الوصول إلى نتائج مختلفة أيضاً. ولا يمكن إقامة بناءٍ واحدٍ على أساسين مختلفين.

مثال ذلك:

١- المدرسة الفكرية التي تعتبر الحواس الخمس هي المصادر الوحيدة للمعرفة، ولا تعترف بما يخالف الإنتاج الحسي، والتي تحصر دور العقل في العقل الحسابي المادّي، فلا تقيم له أيّ اعتبار وراء ذلك، تختلف عن المدرسة الفكرية التي تعترف بمصادر معرفية أخرى، كالوحي، والتي تعطي للعقل دوراً محورياً في المعرفة الأساسية، والتي تكون الحواس فيها تابعة للعقل، فيصدق عليه عنوان: «**ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان**»، وهذا يعني أنّ النتائج الفكرية لهاتين المدرستين في المجالات السياسية والاقتصادية والأخلاقية والتربوية مختلفة أيضاً.

ينبغي أخذ هذا بعين الاعتبار في العلوم الإنسانية - الإسلامية.

٢- المدرسة الفكرية التي لا ترى أيّ علاقة بين العمل والمعرفة، والتي تنكر أيّ تأثير وتأثّر بين الأمرين، وهي تختلف عن المدرسة الفكرية التي تعتقد في مبادئها بوجود علاقة بين العمل الصالح والمعرفة، والتي تعتبر أنّ العمل الصالح يترك أثراً مباشراً على المعرفة. وتعتقد بـ: **﴿ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوء أن كذبوا بآيات الله﴾**[1]، وتؤمن بـ: **﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً × ويرزقه من حيث**

(١) الروم: ١٠.

لا يحتسب﴾[١]، وبـ:**﴿إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾**[٢]، وتعتبر هذه القضايا قضايا معرفية وعلمية وبرهانية، وتعطي للمتقي القدرة على التمييز بين الحق والباطل. وبالتالي تختلف هاتان المدرستان في كافّة المجالات الإنسانية والأبعاد السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية إحداهما عن الأخرى.

٣- إنّ المدرسة التي تعتبر الوحي عبارة عن تجربة النبيﷺ الشخصية، وتحصر دور العقل والبرهان في الأمور الحسابية الصرفة المحدودة بالعالم المادّي، تختلف عن المدرسة التي لا ترى أيّ تعارض بين البرهان والقرآن، لا بل تعتقد بأنّ: «**ما حكم به الشرع حكم به العقل وبالعكس**». وبالتالي ستختلف النتائج المترتّبة على هاتين المدرستين.

والأهمّ من هذا أنّ هذه المدرسة لا ترى أيّ تعارض بين العرفان والبرهان والقرآن، وذلك خلافاً للمدرسة الأولى التي تعتبر هذه الأمور الثلاثة مختلف بعضها عن البعض الآخر بالكامل.

- لا يمكن لأصحاب المدرسة الأولى أن يقدّموا نتاجهم التحقيقي والفكري على أنّه علم، حالل كونهم يرفضون المدرسة الفكرية المقابلة، ويعتبرونها أمراً غير علمي، لا بل شخصياً وخرافياً وغير ذلك.

إنّ هذه الثنائية في التعاطي والاستنتاج أمر غير علمي بالكامل، وهو خلاف حكم العقل.

- إذا اقترحت المدرستان والجهتان، مجموعتين من القضايا والعبارات للإنسان، فهما في الواقع قد وضعتا أمامهما مذهبين وإيديولوجيتين توجّهان حركته. والحقيقة إنّه لا يمكن اعتبار إحداهما ديناً ومذهباً يحمل إيديولوجية، والأخرى علماً وعقلاً خالياً من الإيديولوجية، بل

(١) الطلاق: ٢-٣.
(٢) الأنفال: ٢٩.

ينبغي التعاطي مع المدرستين بمعيار وملاك واحد.

- إنّ الذي تقدّم مفاده: أنّ العلوم الإنسانية تعتمد على أصول موضوعية مختلفة. ولكن يجب الإشارة إلى أنّ المدرسة الفكرية التي تعتقد بالمبدأ الإلهي، والتوحيد، والإيمان، والقيامة، والروح الإنساني، وأمثال ذلك من الأمور، تعتبر ذلك علماً بكلّ ما للكلمة من معنى، بحيث ينطبق على موازين العقل والبرهان والمنطق.
- ينبغي لأتباع مدرسة الأنبياء عليهم السلام والأديان القيام بالتأسيس للعلوم الإنسانية، بناءً على الأسس والمبادئ التي يحملونها. وبالتالي عليهم بذل الجهود لاستنتاج الحقائق العلمية لهذه المبادئ وكشفها، ومن ثمّ اكتشاف القضايا ذات العلاقة بالسياسة والاقتصاد والتربية والأخلاق والمجتمع والنفس، بناءً على هذه المبادئ والأصول الموضوعية، وبالتالي التأسيس لوجودهم بالارتكاز على هذه العلوم الإنسانية.
- ينبغي أن يعلم الذين يعتبرون مدرسة الأنبياء عليهم السلام والأديان الإلهية إيديولوجية ومذهباً، والذين ينظرون إلى المدارس الفلسفية كالشيوعية على أنّها دين ومذهب، والذين يعتبرون أنّ الله في الماركسية هو جبر التاريخ، وأنّ الجنّة والنار هما المجتمع الخالي من الطبقات والمجتمع الطبقي، والذين يؤسّسون لدينهم على أساس هذا الإله وهذه القيامة، أنّ هذا الموضوع يجري أيضاً في عالم الليبرالية، لأنّه، وكما يعتقدون، فلا وجود لإله وراء الليبرالية، وأنّ سعادة الإنسان يمكن مشاهدتها في ظلّ الإيمان بهذا الإله والجنّة الإنسانية في المجتمع الليبرالي فقط، وأنّ المعارضين لليبرالية محكومون بالكفر وسلب الحقوق الإنسانية، لا بل يستحقّون القتل في الكثير من الحالات، كما يحصل في الكثير من مناطق العالم. ويعتبر مفكّروهم أنّ الليبرالية هي قمّة الكمال البشري، حيث لا يمكن فرض أفق أعلى من ذلك.

بناء عليه، إذا شاهدنا الإمام الخميني قدس سره وقد جعل التوحيد محور فلسفته السياسية، ونَظَّم كافّة الأمور، كالحرية، والعدالة، والدولة، والنظام السياسي، والقانون الدستوري على أساس الحركة الفكرية التوحيدية، فإنّ ذلك سيكون على أساس محاور مختلفة ذات علاقة بالسياسة المؤثّرة، حيث سنكون أمام علوم سياسية من نوع آخر تختلف عن العلوم السياسية المنكرة للتوحيد.

ما تقدّم كان حصيلة الرؤية السياسية التي طرحها الإمام الخميني قدس سره وعمل على تطبيقها منطلقاً من أصل التوحيد ليقدّم طرحاً فكرياً تأصيلياً لعلم السياسة، وما من شأنه أن ينهض بالمجتمع والإنسان نحو تحقيق أهدافهما المرجوّة.

وتجدر الإشارة إلى وجود مبادىء وأصول سياسية - اجتماعية عدّة طرحها الإمام الخميني قدس سره في رؤيته السياسية، حيث عمل على تطبيقها في أنموذج الحكومة الإسلامية في إيران، لا مجال للتوسّع في بحثها في هذه المقالة، على أمل البحث فيها مفصّلاً في مقالات لاحقة، منها: الحرية الإنسانية، والعدالة الاجتماعية، والعلاقات الداخلية والخارجية، والتنمية البشرية والاقتصادية، والنظم السياسية، والدستور، والرأي العام، والسيادة، ونظام الحكم، وغيرها من المسائل التي تبتني في فكر الإمام الخميني قدس سره السياسي على أساس أصل التوحيد.